حرب القرم وآثارها على المشرق الاسلامي

للدكتور محمد كمال الدسوقى

الاعتبارات الاستراتيجية ، التى ادت الى حرب القـرم ، كانت هى نفس الاعتبارات التى دفعت بالمرستون ، في عام ١٨٤٠ ، الى معاونة السلطان العثمانى ضد محمد على • لقد ركزت انجلترا اهتمامها عـلى مصالحها الخاصة ، لحماية طرق التجارة ، الواقعة في الشرق الادنى ، والتى تمثـل بالنسبة لها ، شريانا حيويا للشرق الاقصى عامة وللهند بصفة خاصة • ومع ازدياد نجاح بريطانيا المتزايد والسريع في مجال الصناعـة ، مـع قيام الثورة الصناعية بدأت اهتماماتها بتلك الطرق التجارية ايضا في التزايد • وتزايدت حاجة انجلترا الى المواد الخـام مـن الشرق الاقصى ، فتغيرت انواع البضائع التى كان على السفن التجاريـة ان تحملها فاصبحت تحمل الجوت والمواد الخام بدلا مـن حملها للبهارات والتوابل ، طوال القرون السابقة وحتم نوع من البضائع مع وجـوب حمـل كميات ضخمة من الوقود والماء اللازم للسفن البخارية في رحلتها الطويلة حـول رأس الرجاء الصالح ، حتم عـلى بـريطانيا ايجاد طريق بديل يوفر للسفن الوقت والجهد ، ويتيح لها تقليل حمولتها من الوقود والماء ، طريق قصير تتوفر به الموانى كل مسافة ، لتموين السفن البخارية بالوقود ، والماء ، والطعام • وكان الحل الامثل لتلك المشاكل هو ان تعود بريطانيا لاستخـدام الطـرق القديمة ، عبر مصر ، وبـلاد الشام ، وهى الطرق التى شاع استعمالها قبل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح منذ أكثر مـن ثلاثة قرون • (١)

كان الطريق من انجلتـرا الى الهنـد عن طريق برزخ السويس ، أو عن طريق بلاد الشام ، ونهر الفرات ، لا يزيد كثـيرا عن ثلث طول الطريق من انجلترا الى الهنـد ، عن طريق رأس الرجاء الصالح • ولهذا لم تكن السياسة البريطانية المعتمـدة اساسا على تجارة المستعمرات ، لترضى بسيطـرة دولة قوية على أى من الطريقين عبر مصر ، او عبر بلاد الشام ، ولم تكن لترضى بانهيار الدولة العثمانية لتحل محلها قوى جديدة ، قـد تكـون سببا في مضايقات للتجـارة البريطانية •

---

١ ـ ا•ج • جرانت وهارولد تمبرلى ـ اوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين الجزء الاول ص ٤١٧ وما بعدها •

— William Miller, The Ottoman Empire and its Successors, 1801—1827, London 1966, pp. 198—201.

والواقع ان تلك السنوات كانت سنوات تزايد وازدهار بالنسبة للتجارة الخارجية البريطانية • لقد نمت واردات بريطانيا من حوالى ٤٤ مليون جنيه استرليني في عام ١٨٢٥ ، لتصل في عام ١٨٥٣ الى حوالى ١٢٣ مليون جنيه استرليني • وقفزت صادرات بريطانيا من حوالى ٥٦ مليون جنيه استرليني عام ١٨٢٥ ، لتصل في عام ١٨٥٣ الى حوالى ٢٤٢ مليون جنيه استرليني • وكان على بريطانيا في تلك الفترة ان تجد اسواقا واسعة لمنتجاتها ومصادر للمواد الاولية اللازمة للصناعة ومصادر للطعام اللازم للاعداد المتزايدة من السكان في بريطانيا ، وكانت الدولة العثمانية باملاكها الشاسعة تفي الى حد كبير بهذا الغرض •

وشهدت تلك السنوات تزايدا مضطردا في حجم التجارة البريطانية ، مع الدولة العثمانية واملاكها • خاصة وان الدولة العثمانية كانت تفرض على البضائع الانجليزية ضريبة جمركية بسيطة لم تكن تتجاوز ٥٪ بينما كانت دول اوروبا الكبرى مثل فرنسا ، وروسيا ، وبروسيا ، تفرض رسوما جمركية عالية على البضائع الانجليزية وقضت الدولة العثمانية على اغلب شكاوى التجار الانجليز ، بعد أن عقدت مع بريطانيا معاهدة تجارية في ١٦ اغسطس ١٨٣٨ ، عرفت باسم معاهدة بالتا ليمان

لقد تضاعفت صادرات بريطانيا الى تركيا في المدة من ١٨٢٥ الى ١٨٥٢ ثمانية اضعاف فقفزت من حوالى مليون جنيه استرليني الى أكثر من ثمانية ملايين من الجنيهات الاسترلينية • اما واردات بريطانيا من تركيا فانها في نفس الفترة ، قد زادت الى الضعف فقط ، فزادت من اكثر من مليون جنيه استرليني عام ١٨٢٥ ، لتصبح في عام ١٨٥٢ اكثر من مليونين من الجنيهات الاسترلينية وكان طبيعيا ان تهتم بريطانيا اهتماما شديدا بتجارتها مع الدولة العثمنية فجعلت صادراتها لتركيا قبيل نشوب حرب القرم ، تزيد عن صادراتها لكل من روسيا وايطاليا ، وفرنسا ، والنمسا ، فان ايا من هذه الدول لم تستورد من البضائع الانجليزية مثلما كانت تفعل تركيا • بل ان كل هذه الدول كانت ترفع من الضرائب الجمركية تدريجيا مما ادى الى قلة استيرادها التدريجى ايضا للبضائع الانجليزية • (١)

جدول يبين حجم التجارة البريطانية مع تركيا
مقدة بالجنيه الاسترليني (٢)

العام	صادرات بريطانيا لتركيا	واردات بريطانيا من تركيا
١٨٢٥	١ر٠٧٩ر٦٧١	١ر٢٠٧ر١٧٢
١٨٣٠	٢ر٧٤٥ر٧٢٣	٧٢٦ر٠٦٥

١ - V.J. Puryear, England, Russia and the Straits Question, 1844—1856, Berkeley, Calif., 1931, P. 91.

٢ - F.E. Bailey, British Policy and the turkish Reform Movement (Cambridge, Mass. : Harvard Univ. Press, 1942), P. 74.

١٨٣٥	٢٫٧٠٦٫٥٩١	٨٧٩٫٠٨٩
١٨٤٠	٣٫٦٧٣٫٩٠٣	١٫٢٤٠٫٨١٢
١٨٤٥	٧٫٦٢٠٫١٤٠	١٫٤٦٥٫٩٧٢
١٨٥٢	٨٫٤٨٩٫١١٠	٢٫٢٥٢٫٢٨٣

حتى واردات بريطانيا من تركيا كانت رغم عدم تزايدها ، تمثل مصدرا هاما لبعض المواد الاولية ذات الاهمية القصوى بالنسبة لصناعة الانجليزية ، وفي مقدمة ذلك مواد الصباغة ، والحرير الطبيعي ، كما ان القمح ايضا من ولايتي الدانوب الافلاق والبغدان ، قد اصبح تدريجيا يمثل جزءا هاما من واردات بريطانيا من تركيا • وانعكس كل هذا على عدد السفن البريطانية التي كانت تعبر المضايق في كل عام ففي عام ١٨٤٢ بلغ عددها ٢٥٠ سفينة بريطانية ، وزاد العدد ليصبح ١٣٩٧ سفينة بريطانية في عام ١٨٤٨ ، ثم ليصبح ١٧٤١ سفينة بريطانية في عام ١٨٥٢ • وعدد السفن البريطانية كان يمثل في عام ١٨٥٢ ، ثلث اجمالي عدد السفن التي استخدمت نهر الدانوب للملاحة ، ونهر الدانوب حينئذ كان يمثل شريان المواصلات المائية في وسط اوروبا وشرقها • (٣)

لقد كانت تجارة بريطانيا مع الدولة العثمانية عاملا هاما من عوامل محافظة بريطانيا على كيان الدولة العثمانية ، بل ان بريطانيا كانت ترى ان مستقبل تجارتها مع تركيا اكثر ضمانا لها ، من تجارتها مع كثير من الدول ، وفي مقدمتها روسيا التي بدأت في انشاء مصانع بها ، قد تهدد يوما ما التجارة البريطانية • ففي عام ١٨٥١ كانت بريطانيا تصدر لتركيا ، قدرا من البضائع الانجليزية مساويا للقدر الذى تصدره الى روسيا ، ولكنها كانت تعلم ان روسيا قد بدأت تنشىء المصانع ، وانها ستستغنى تدريجيا عن استيراد الكثير من البضائع الانجليزية • ولهذا نرى أن بريطانيا كانت حريصة كل الحرص على تدعيم علاقاتها الاقتصادية وايضا السياسية مع تركيا ، ولقد اوضح بالمرستون ذلك لمجلس العموم في عام ١٨٤٩ قائلا :

« اذا كان استقلال تركيا ذا اهمية كبيرة من وجهة النظر السياسية فانه من الناحية التجارية لا يقل اهمية بالنسبة لبلدنا • وانه لحقيقى تماما انه لا يوجد بلد آخر مثل تركيا يسمح لبضائعنا بالدخول في حرية ولتجارتنا بالنمو » • (١)

---

١ - See:H. Temperley, England and the Near East, the Crimea, London, 1936, P. 251.

Cited by V. J. Puryear, International Economics and Diplomacy in the Near East, Stanford, Calif, 1935, P. 213.

See : Golo Mann, Deutsche Geschichte des neunzehnten and zwanzigsten Jahrhunderts, Frankfurt am Main, 1958, P. 258 ff.

(جولومان - التاريخ الالماني للقرنين التاسع عشر والعشرين - فرانكفورت - ماين - ١٩٥٨ - ص ٢٥٨ وما بعدها) •

وبالرغم من ان تركيا كانت قد اصبحت على ما شاع من قول في ذلك العصر « رجل اوروبا المريض » الا انها كانت لا تزال تملك اراضي شاسعة ، كثيرة الخيرات تطمع كل الدول الاوروبية الكبرى في امتلاكها ، او السيطرة عليها ، ولا يمنعها من ذلك الا خوفها من ان تنال دولة أخرى غيرها ، نصيبا اوفر من الغنيمة • وكان السؤال الذي طالما اهتم به مترنيخ مستشار النمسا ، هو ماذا كان هناك فائدة من احالة الرجل المريض الى الطبيب لمداواته ، ام ان الافضل احالته الى الورثة لينال كل منهم نصيبه • وكانت روسيا ولمدة قرن من الزمان او يزيد ترى احالة الرجل المريض الى الورثة ، ولم تغير مسلكها هذا الا لفترة وجيزة في اعقاب ازمة ١٨٣٩ بين السلطان ومحمد علي ، ثم اتبعت بعد ذلك سياسة الترقب للانقضاض على الميراث ، لتنال اكبر نصيب ممكن ، اذا حدثت للرجل المريض وفاة مفاجئة • (١) وفي فترة الازمات تلك بين السلطان ومحمد علي استفادت روسيا من سياستها هذه لكسب ود بريطانيا ، وعزل فرنسا ، بلد الثورات والمبادىء التي تخشاها روسيا وتمقتها وتعمل على عدم تسربها الى بلادها • ولقد تأثر القيصر نقولا في ذلك بالثورة التي قامت في اول حكمه وهددت عرشه ، وكان يرى ان الثورة قد تتسرب الى روسيا ولكنه اقسم انها لن تدخل فيها ما دام هو على قيد الحياة وكان نقولا يكره الملكية الدستورية الحاكمة في فرنسا ، ويعتبرها نظاما مزيفا ، يضر بفرنسا ، ويمثل خطورة على بقية الدول • وكان نقولا يكره نابليون الثالث ، ولايصدق دعاواه للسلام ، التي جعلها شعارا للامبراطورية •

والحقيقة انه قد يكون من الاجحاف لنابليون الثالث ، القول بان رغبته في تحقيق امجاد عسكرية ، كانت هي الحافز الاكبر ، لدخوله حرب القرم ، ضد روسيا فهو حقا كان يريد تحقيق امجاد ، تعيد الى الاذهان انتصارات عمه نابليون ولكنه في نفس الوقت كان يريد سلاما للامبراطورية ، ولكن من الصعب الوصول الى الهدفين معا • والشعب الفرنسي كان يرنو الى السلام ، ولا يريد حربا ، وقد وعده نابليون الثالث بذلك قائلا : « ان الامبراطورية لا تتوق الى شيء اكثر مما تتوق الى السلم فنحن نملك اراضي شاسعة غير معمورة ، نريد اصلاحها وزرعها وطرقا نرغب في شقها ، وموانى نرغب في تعميقها ، وقنوات في اكمال حفرها ، وانهارا نريد ان نجعلها صالحة للملاحة ، وسككا حديدية نريد ربط بعضها ببعض • وعلى الساحل المقابل لمارسيليا نملك اراضي مترامية ، نرغب في ادماجها بفرنسا » (٢)

---

١ ـ محمد رفعت ، تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية ـ دار المعارف بمصر ١٩٥٩ ـ ص ٧٥ وما بعدها •

٢ ـ هـ ٠ ا ٠ ل ٠ فيشر ـ تاريخ اوروبا في العصر الحديث ١٧٨٩ ـ ١٩٥٠ = دار المعارف بمصر ص ٢٢٢ •

لم يكن وقوف روسيا الى جانب السلطان العثماني خلال الازمات التى اثارها محمد على تعنى بالمرة ان روسيا قد غيرت من موقفها حيال الدولة العثمانية لقد بدأ هجوم الروس على املاك الدولة العثمانية منذ عام ١٧٣٠ ٠ وتكرر طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر وظلت روسيا تسعى دواما للسيطرة على القسطنطينية ومضيقى البوسفور والدردنيل ، وتهاجم املاك الدولة العثمانية في البلقان ، وتثير شعوب تلك المناطق ضد الدولة العثمانية ، متخذة اياها مخلب قط للوصول الى اهدافها ٠ ولم تتردد في اتخاذ كافة الوسائل المشروعة وغير المشروعة للوصول الى اهدافها وليس ادل على ذلك من ان روسيا بمجرد اخضاع محمد على ،واجباره على قبول الشروط الشديدة التى فرضتها عليه هي والدول العظمى ، لم تلبث ان عادت سريعا الى مشروعاتها القديمة ضد الدولة العثمانية لاقتسام املاكها ٠

خرج الاحرار من الحكم في انجلترا عام ١٨٤١ ، وانتهى عهد بالمرستون وتولى بيل Peel رئاسة الوزارة البريطانية وتولى ابردين Lord Aberdeen وزارة الخارجية ٠ وحاول القيصر نيقولا كسب ود بريطانيا فسعى في محادثاته مع اللورد ابردين عام ١٨٤٤ ، الى ان يصل مع بريطانيا العظمى الى اتفاق ، بالنسبة للدولة العثمانية التى وصفها بانها رجل مريض ، مشرف على الموت ، ورأى نيقولا انه يحسن بانجلترا وروسيا الاستعداد لتقبل انحلال الامبراطورية العثمانية ٠ (١) وابدى نيقولا رغبة روسيا في الحصول على القسطنطينية ووافقته على ان تحصل انجلترا نظير ذلك على مصر ، وكريت ايضا ، اذا شاءت ٠

واوضح نيقولا انه بهذا برهن على استعداده الكامل لمراعاة مبدأ التوازن الدولى ومراعاة انجلترا ومصالحها ، وتعويضها التعويض العادل عند اجراء اى تقسيم لاملاك الدولة العثمانية ٠ ولم تقتنع الحكومة البريطانية بوجهة النظر الروسية ولم تقبل الاخذ بها مما جعل روسيا تضمر نوايا اخرى تتفق وسياستها التقليدية بقصد العمل بمفردها من اجل تحقيق مصالحها واطماعها في املاك الدولة العثمانية ٠ (٢)

ازمة المهاجرين

ونشبت الثورات التحررية في عام ١٨٤٨ في فرنسا ، وبروسيا وايطاليا والنمسا وادت هذه الثورات التى اندلعت في كل انحاء اوروبا تقريبا ، الى تعكير صفو العلاقات

---

١ - أ٠ج٠ جرانت وهارولد تمبرلى - المرجع السابق الجزء الاول ص ٤١٥ - ٤١٦
Lady F. Balfour, Life of Aberdeen, vol II, 1923.

٢ - راجع
— J. Adye, The Crimean War, 1860.
— G. Brackenbury and W. Sampson, Campaign in the Crimea, 1855.
— F. Birne Map of the Crimea, 1858.
— S. J. G. Clathorpe, Letters From Head-quarters, a vols, 1856.
— R. Cabdon, Speeches, z vols., 1870.

الروسية البريطانية ، وظهرت في الـــرأى العام البريطاني موجات معادية لـــروسيا وسياستها ، وحاول بالمرستون ، ان يخفف من غضب الرأى العام البريطاني ضد القيصر نيقولا ٠٠ وعندما احتلت القوات الـروسية ولاشيا ، احدى مقاطعتي الدانوب ، اكـــد بالمرستون لمجلس العموم ان ذلك الاحتلال ليس الا احتلالا مؤقتا، وانه لا داعي للاحتجاج ولم يعترض بالمرستون على روسيا حين عبرت القوات الروسية جبال الكربات لتساعـــد امبراطـــور النمسا الهابسبورجي ، عـــلى سحق ثوار المجر ، الذين طالبوا بالانفصال عن امبراطورية النمسا ولم تبدأ المشاكل مع روسيا الا بعد القضاء على ثورة المجـر عام ١٨٤٩ ، عندما هرب الثوار بعد هزيمتهـم عبر الحدود الى الدولة العثمانية ٠

وكان عدد الثوار الذين لجأوا الى الدولة العثمانية حوالى ٣٦٠٠ من المجريين ، وحوالي ٨٠٠ من البولنديين ، الذين اشتركوا معهم في ثورتهم من اجل استقلال المجر عن النمسا وطالب امبراطور النمسا ، وقيصر الروسيا الحكومة التركية بتسليم اولئك المهاجرين ، المجريـون يسلمـون الى حكـومـة النمسا ، والبولنديون الى روسيا ، صاحبـة السيادة على بولندة ٠ وكانت تركيا تتعاطف مـــع اولئك الثوار ، وتعلـــم تمام العلـــم ، ان تسليمهم عبـر الحـــدود الى النمسا او الى روسيا كان يعنى اعدامهم ، ولهـذا رفضت بتشجيع من سفيرى فرنسا وانجلتـرا فـي استامبول ، تسليم اولئك الثوار استجابـة لطلب النمسا وروسيا ، واصرت تركيا على موقفها رغم تهديدات فيينا وبطـرسبـــرج المتكررة ٠ وغضبت الدولتان وفي يـوم ١٧ سبتمبر ١٨٤٩، قطعتا علاقاتهما الدبلوماسية بتركيا ، وجاء رد بالمرستون يوم ٧ اكتوبر ١٨٤٩ ، معلنا ان بريطانيا وفرنسا مصممتان على دعم الحكومة التركية وان الاساطيـــل البريطانية والفرنسية كانت في طـريقها الى منطقة مجاورة للدردنيل ٠ (١)

تراجع قيصر روسيا فورا لكى لا يدخل في نزاع او حرب مع الدولتين الغربيتين فاستغل فرصة استقباله لمبعوث تركى خاص ، يوم ١٩ اكتوبر ١٨٤٩ ، واعلن تنازله عن طلب تسليم المهاجرين الى تركيا وانتهت الازمـة رسميا ، ولكنها في الواقع قد اوجـــدت في بريطانيا رايا عاما مضادا لروسيا ٠٠ وكتب بالمرستون الى ستراتفورد في استانبـــول يخبره ان كل الناس من كل الطبقات والمهن والاحزاب ، قد عمهم الغضب والاستياء ، من روسيا والنمسا ٠ ولم يزل الاثر رغم تراجع قيصر روسيا ، حتى ان اى ازمة قادمـــة ، كان من الممكن ان تثير الرأى العام البريطاني وتدعم موقف الراغبين في التشدد مع روسيا

أزمة الاماكن المقدسة

بدأت أزمة الاماكن المسيحية المقـدسة ، بعد أقل من عام واحد مـــن أنتهاء أزمـــة المهاجرين الثوار ٠ وأصل تلك الازمة يرجع الى نهاية عصر الحروب الصليبية حين أصبحت

١ - Cited by H. Temperley, England and the Near East, The Crimea, London, 1936, P. 267.

الاماكن المقدسة للمسيحيين في القدس وماحولها ملكا مشتركا للطوائف النصرانية الستة : اللاتين (اتباع كنيسة روما الكاثوليكية) ، والروم الارثوذكس ، والارمن والسريان ، والاقباط ، والاحباش • وكانت الكنائس الثلاث الاخيرة قد دخلت بسبب من ضعفها تحت حماية الارمن، الذين اعتمدت عليهم الدولة العثمانية اعتمادا كبيرا في النواحي المالية • وقد بدأ نفوذهم في الدولة العثمانية في الازدياد بدرجة واضحة منذ نشوب الثورة في بلاد اليونان ، فحل الكثيرون منهم محل كثير من اليونانيين ، الذين استغنى السلطان العثماني عن خدماتهم ، بسبب موقفهم الموالي للثوار اليونانيين •

وكانت الكنيسة الارثوذكسية اكثر تلك الكنائس نفوذا واعلاها منزلة ، بوصفها ممثلة لعشرة ملايين من رعايا السلطان العثماني المسيحيين ، وكذلك بفضل حماية روسيا ، تلك الحماية التي ضمنت لتلك الكنيسة بعض الامتيازات والتي ساعدت روسيا من ناحية أخرى على ايجاد ذريعة للتدخل في املاك الدولة العثمانية للحصول على منافع ذاتية لروسيا ، تحت شعار حماية المسيحيين من الروم الارثوذكس • (١)

ووضعت فرنسا هي الاخرى حمايتها في خدمة رجال الكنيسة اللاتين أبناء المذهب الكاثوليكي ، ومعظمهم من اصل اسباني أو ايطالي أو فرنسي ، وكانوا أيضا يتمتعون بعدد من الامتيازات ويتطلعون دائما الى حماية فرنسا لهم والخلاف بين اتباع الكنيسة الارثوذكسية واتباع الكنيسة اللاتينية ، كان أمرا قديما ، بسبب خلافاتهم المذهبية وبسبب تدخل روسيا وفرنسا من آن لاخر في تلك الخلافات • والواقع ان الطوائف المسيحية المختلفة قد توارثت حقوقها جيلا بعد جيل ولم يكن هناك وثائق مدونة ، أو نظام ثابت ، بل كان الامر في أي خلاف يبت فيه في حينه بمقتضى ماتراه السلطات العثمانية المحلية • وكان أمرا طبيعيا ان تنشب الخلافات الحادة في كنيسة القيامة ، في القدس ، وكانت ملكا مشتركا لجميع الطوائف المسيحية ، وكان أمرا طبيعيا أن يتدخل الحرس التركي ، لفض المنازعات وأعمال العنف ، بين رجال الدين من الطوائف المتنازعة • (٢)

وزاد النزاع بين رجال الدين اللاتين ابناء المذهب الكاثوليكي ، وبين زملائهم ابناء الكنيسة الارثوذكسية ، مع مطلع القرن التاسع عشر ، بسبب انشغال فرنسا بالثورة الفرنسية ، وبالحروب والمشاكل العديدة التي عانت منها فرنسا في سنوات ما بعد الثورة • لقد استغل رجال الكنيسة الارثوذكسية انشغال فرنسا وزادوا مدعمين بتأييد روسيا من امتيازاتهم واصبحوا قبيل منتصف القرن التاسع عشر يسيطرون على عدد من الاماكن المقدسة كان من قبل تحت سيطرة الكاثوليك ، وساعد على ذلك

---

١ _ Sir John A. R. Marriott, The Eastern Question, An Historical Study in European Diplomacy, 4 th Edition, Oxford, 1969, P. 251 ff.

٢ _ ا٠ج٠ جرانت وهارولد تمبرلي _ المرجع السابق ٠ الجزء الاول _ ص ٤٢٢ وما بعدها •

تدخل روسيا الدائم في شئون الـدولـة العثمانية ومحاولاتها المتكررة للحصول على المزيد من الامتيازات من السلطان العثماني لتنفرد بنوع من الحماية للمسيحيين من رعايا الدولة العثمانية ، وهم في غالبيتهم من اتباع الكنيسة الارثوذكسية ، نفس مذهب الكنيسة الروسية • (١)

وجاء عام ١٨٤٨ وانتشرت الثـورات في كل انحاء اوروبا ، في بـروسيا والنمسا ، وفرنسا وفي الولايات الايطالية في مملكـة بيدمونت ، ومملكة نابـلي ، وفي لمبارديا ، والبندقية ، وتسكانيا ، وغيرها • وكان من ثمرة تلك الثورة في فرنسا ان انهيت ملكية لويس فيليب ، واستلم مقاليـد الحكـم في فرنسا لويس بونابرت ، وهو ابن شقيـق نابليون بونابرت ،ووريث الاسرةالبونابرتية • وقد جاء انتخابـه رئيسا للجمهوريـة الفرنسية باغلبية ساحقـة • وكان لـويس يرغب في تجنب اخطاء الامبراطوريةالفرنسية الاولى ، ويسعى في نفس الوقت الى تعديل معاهدات ١٨١٥ ، وكان يؤثر أن يتم ذلك على يد مؤتمر أوروبي ، صونا للاستقـرار والسلام في اوروبا الا أنه كان يعلم ان الشعب الفرنسي ينتظر من حكمه الكثير ، ويـربط بين اسمه واسم عمه نابليون ، ولعل ذلك هو الذى جعل سياسته الخارجية نزاعة الى المجد والتألق ، وكان عليه ان يقدم خدمات جليلة وامجادا واضحة ، تعيد الى اذهانهم ذكرى نابليون ، وتحقق له طموحه ، ورغبته في أن يصبح امبراطورا لفـرنسا ، وهـو ما تحقق بالفعل خلال أربع سنوات من بداية حكمه لفرنسا • (٢)

أظهر لويس نابليون الثالث ، منذ توليه رئاسة الجمهورية الفرنسية رغبة صادقـة في تدعيم الكنيسة الكاثوليكيـة في روما ، فعاون البابا ، على استعادة املاكه ونفوذه ، بعد أن عصفت بها أحـداث ثورة ١٨٤٨ التى قادتها ملكة بيدمونت ، ضد الاحتـلال النمساوى للبندقيـة ولمبارديا ، بقصـد تحريرها من الجيوش النمساوية ، واقامـة وحدة ايطالية ، تضم كل الولايات الايطالية المفككة • ودعم موقف لويس من البابا مركزه في داخل فرنسا ، فبدأ يعتمد اساسا عـلى الحزب الكاثوليكى القوى ليواجه به خصومه من الراديكاليين •

ولهذا السبب عينـه وبنفس الحماس ، ارسل لويس بونابرت عام ١٨٥٠ مبعـوثا عنه الى القسطنطينيـة لمطالبـة السلطان العثماني بتوسيع حقوق اللاتين التقليديـة توسيعا كبيرا • وهكذا بدأت فرنسا تخرج من عزلتها ، التى فـرضتها عليها روسيا بمعاونة انجلترا خلال أزمة محمد على مـع السلطان العثمانى قبل أعوام قليلة ، وبدأت

---

١ - J. A. R. Marriot, op. cit., p. 252.

٢ - Golo Mann, op. cit., p. 288 ff.

F. A. Sampson, Rise of Louis Napoleon, p. 162.

تتخذ الخلاف المذهبى ، وسيلة لمقاومة النفوذ الروسى المتزايد في الشرق الادنى بصفة عامة ، وفي الاماكن المقدسة في بيت المقدس بصفة خاصة • (١)

تأزم الموقف

هددت روسيا السلطان عبد المجيد ، بقطع علاقاتها الدبلوماسية مع استامبول ، اذا ما استجاب لمطالب فرنسا ، وأدخل أى تعديل على الوضع القائم في الاماكن المقدسة وتمهل السلطان العثمانى ولم يستطع البت في الامر خشية اغضاب أحد الطرفين وبعد ضغط فرنسى متواصل ، قرر السلطان في عام ١٨٥٢ اعطاء بعض الامتيازات لرجال الدين اللاتين ، كان اهمها اعطاء اللاتين المفاتيح الثلاثة الخاصة بالابواب الرئيسية لكنيسة العذراء ، وبالسراديب القائمة تحت كنيسة المهد في بيت لحم •

أثار هذا الحادث ، رغم عدم أهميته ، الرأى العام في روسيا خاصة وان القيصر نقولا كان يظهر الكراهية نحو لويس بونابرت ، الذى أصبح منذ ديسمبر ١٨٥٢ ، امبراطورا لفرنسا ، بعد أن ألغى النظام الجمهورى ، وجمع السلطة في يده وكان نقولا يعتبره رجلا مخادعا ، وصل الى السلطة مستغلا اوضاعا ثورية ، لا يقبل بها قيصر روسيا • وأرسل القيصر نقولا مبعوثا خاصا الى استامبول ، للتفاوض مع السلطان العثمانى مباشرة • واختار القيصر لتلك المهمة الامير منشيكوف Prince Menshikov وهو رجل خشن الطباع ، ما كان للقيصر أن يعتمد عليه في هذه المهمة الدبلوماسية الا بغية توطيد مركز روسيا في الاماكن المقدسة • (٢)

وفي نفس الوقت الذى بعث فيه نقولا بمبعوثه الى القسطنطينية بدأ هو بنفسه محادثات هامة مع سفير بريطانيا لديه ، السير هاميلتون سيمور Sir Hamilton Seymour وكان نيقولا يهدف من تلك المباحثات الى التوصل مع انجلترا الى اتفاق وتفاهم يجعل فرنسا تنعزل مرة أخرى ، مثلما حدث في عام ١٨٤٠ • وشجع نقولا على تلك الخطوة ، أن بالمرستون قد ابتعد عن مركز السلطة وتألفت بانجلترا في تلك الفترة وزارة برئاسة اللورد ابردين ، وكان القيصر الروسى يعتبره صديقا له •

وتمت المحادثات بين القيصر نقولا والسير سيمور ، في أربع جلسات ، خلال يناير وفبراير ١٨٥٣ ، وعرض نقولا وجهة نظره في وضوح وصراحة لقد حاول أن يعقد صفقة مع بريطانيا ، على حساب املاك الدولة العثمانية ، دون ان تنال فرنسا شيئا من الغنيمة • لقد اوضح للسفير البريطانى أنه يريد الابقاء على تركيا أطول مدة ممكنة • ولكنه اثار الشك فيما اذا كانت الدولة العثمانية نفسها ، ستستطيع مواصلة

---

١ - J. Barckhausen, Maenner. und Maechte am Bosporus, Abdul Hamid und seine Zeit, Berlin, 1938, pp. 71-75.

(ج• باركها وزن - رجال وقوى على البوسفور - عبد الحميد وعصره - برلين ١٩٣٨ ص ٧١ - ٧٥)

٢ - G. B. Henderson, Crimean War Diplomacy, Glasgow, 1947, pp. 6-7.

المحافظة على وجـودها ٠٠ ووصفها بانها« رجل أوربا المريض » وكرر ما سبق له ان اوضحه مرارا ، بأن مرضها شديد ولا يرجى لها الشفاء ٠ وبين القيصر للسفير ،ان الواجب يحتم على بريطانيا وروسيا ، ان يتفقا مسبقا على الطريقة ، التى سيتم بمقتضاها توزيع تركة ذلك الرجل المريض ، على حد قوله ،واعلن لـه القيصر ان روسيا تملك مـن الاراضى ما يكفيها ، وانها تكتفى بجعـل القسطنطينية ميناءا حرا ، وبوضع الصرب ، وبلغاريا ، وولايتى الدانوب ، كدول مستقلة تحت حماية روسيا ، واخبر السير سيمور بانه لا اعتراض لديه في ان تنال بـريطانيا جزيرة كريت ومصر وكتب سيمور تقريـرا بذلك لحكومته ٠

ورد اللورد جون روسل Lord John Russell سكرتير الخارجية البريطانية على مقترحات القيصر الروسى بان بريطانيا تحافظ على بقاء الدولة العثمانية وان التفكير في مشروع لتقسيم املاكها يعجل بنهايتها ، يزيد من فرص اندلاع الحرب ولا يقلل منها ولكن روسل اضاف ان حكومة بـريطانيا تؤكد للقيصر بانها لن تبت في هذا الموضوع اذا دعا الامـر ، الا بعـد مشاورة القيصر الروسى ، وكان على نقولا ان يرضى بذلك الرد الدبلوماسى ، الذى يرفض مقترحاته لتحطيم الدولة العثمانية وعزل فـرنسا عن مجال السياسة في اوروبا ٠ (١)

كانت التعليمات المعطاة الى منشيكـوف حين بعث به القيصر نقولا الى استامبول هى محاولة التوصـل مـع السلطان العثمانى بشأن امتيـازات الارثـوذكس في الاراضى المقدسة ، ومحاولته عقد اتفاق معه يصبـح بمقتضاه لروسيا وحدها الحق في حمايـة الارثوذكس ، من رعايا الدولـة العثمانيـة كلها ٠ ووصل منشيكوف الى استامبول يوم ٢٨ فبراير ١٨٥٣ ، وبدأ مفاوضاته وهدد باحتلال روسيا لولايتى الدانـوب ٠ ولكن السلطان عبد المجيد لم يهتم بتلك التهديدات خاصة وان بريطانيا اعادت تعيـين اللـورد ستراتفورد سفيرا لها في استامبول ، وهو المعروف بعدائه لروسيا ، وقدرته الفائقـة على التعاون مع السلطان العثمانى والحكومة التركية ٠٠ ووصلت الانباء الى السلطان ان نابليون الثالث ، لن يرضى باى اجراء تتخذه تركيا ، استجابـة لاى مطالب تتقـدم بها روسيا ٠ ولم يكن امام السلطان العثمانى من وسيلـة لارضاء روسيا ، الا بقبـول حمايتها لرعاياه المسيحيـين جميعا ، وكان معنى ذلك ان تفرض روسيا وصايتها عـلى الدولة العثمانية في شئونها الداخلية ورفض السلطان قبول ذلك ، فقطعت المفاوضات ، وتسلم منشيكوف يوم ١٨ مايـو ١٨٥٣ ، مذكرة من وزير الخارجية التركية رشيـد باشا ، برفض الحكومة التركيـة لمطالب روسيا ٠ (٢)

---

١ - G. H. Bolsover, Nicholas and the Partition of Turkey, Slavonic and East European Review, XXVII, (December, 1948), p. 145.

٢ - William Miller, op. cit., p. 204 M. S. Anderson, The Eastern Question, New York 1966, pp. 120-123.

احتلال ولايتي الدانوب

اصدر القيصر نقولا في ٢٦ يونيو ١٨٥٣ بيانه الشهير للشعب الروسي الذى اعلن فيه ان رسالة روسيا التى تحملها منذ القدم وهي حماية العقيدة الارثوذكسية والدفاع عنها قد دفعته الى ان يبعث بجيوشه الى امارتي الدانوب ، لا رغبة في شن الحرب ، ولكن رغبة في استعادة الحقوق التى سلبت بعد تدخل الباب العالى في حقوق الكنائس الشرقية • وكانت القوات الروسية فعلا في طريقها لاحتلال ولايتي الدانوب • وعبرت القوات الروسية نهر بروث ، يوم ٣ يوليو ١٨٥٢ ، واحتلت ولايتي الدانوب الافلاق والبغدان (١) • لقد اقدم القيصر الروسي على تلك الخطوة رغم عدم رغبته هو ووزير خارجيته في اشعال نار الحرب ، لاعتقادهم ان احتلال الولايتين سيجبر تركيا على قبول مطالب روسيا ، لفرض حمايتها على كل المسيحيين الارثوذكس ، من رعايا الدولة العثمانية ، وعددهم يتراوح بين عشرة ملايين واثنى عشر مليون نسمة • وتناست روسيا ان انجلترا قد حركت اسطولها ، منذ ١٣ يونيو ١٨٥٣ ، من مالطة الى خليج بزيكا Besika ، في بحر مرمرة قرب الدردنيل ، وان الاسطول الفرنسي قد انضم اليه في اليوم التالى •

كانت روسيا لا تخشى من تلك التحركات البريطانية الفرنسية ، لانها كانت تعلم ان الدولتين لا تبغيان من تلك التحركات اشعال الحرب باى صورة من الصور وانهما تقومان بتلك التحركات ، بغية احراز نصر دبلوماسي ضد روسيا ، ولكى يدعما مركز السلطان العثماني ، في مفاوضاته المتوقعة مع روسيا • (٢)

واخطأت روسيا في تقديرها لموقف النمسا ، فقد استنتج نيقولا من احداث عام ١٨٥٢ ، ان النمسا ستقف معه وتسانده كحليف يعتمد عليه ، خاصة وان النمسا كانت تشعر بالعرفان بالجميل نحو روسيا ، التى ناصرتها في عام ١٨٤٩ ، في القضاء على الثورة الداخلية ، التى كادت ان تحطم امبراطورية النمسا • وكانت النمسا وروسيا تشعران معا باهمية التعاون الوثيق من أجل مقاومة الحركات الثورية التى امتدت الى بقية الدول الاوروبية ، فقضت على استقرارها ، وسببت لها العديد من المشاكل • والواقع ان تصور روسيا للموقف على هذا النحو ، كان مبالغا فيه وستثبت لها الاحداث غير ذلك •

لقد ادى احتلال القوات الروسية لولايتي الدانوب ، الى تهديد التجارة ، النمساوية في نهر الدانوب ، المتوجهة الى البحر الاسود ، والقادمة منه بل انه اضر بامبراطورية الهابسبورج في فيينا ، أكثر مما اضر بالدولة العثمانية وكان الكونت بول Count Boul وزير خارجية النمسا ، قد طلب من روسيا تأجيل احتلالها للولايتين ، على أمل

---

١ ـ اى مقاطعتى مولدافيا وولاشيا (رومانيا الحالية تقريبا) وكان يحكم كلا منهما حاكم منتخب من الاهالى يلقب بالامير او الهوسبودار Hospodar فى ظل السيادة التركية • وكان الهوسبودار قبل ثورة المورة يختار بموافقة روسيا من اليونانيين •

٢ ـ J. Barckhausen, op. cit., pp. 78-79.

ان تصل مع تركيا الى اتفاق ، ولكن روسيا لم تلق اهتماما الى ذلك الطلب • ورغم ذلك فان النمسا لم تحتج على روسيا عقب احتلالها للولايتين رغم ما اصاب النمسا من ضرر مباشر • وآثربول الا يباشر اى دور ايجابى للدخول مع روسيا في مشاكلها ، فلا هو احتج على احتلالها للولايتين ولا هو في نفس الوقت بذل اى جهد للضغط على السلطان العثمانى للاستجابة لمطالب روسيا ، لقد وقف من المشكلة موقف المتفرج ، وبطرسبرج تتوقع منه في كل يوم ان يمد لها يد الحليف الصديق •

على اثر احتلال الجيوش الروسية لولايتى الدانوب وفي نفس اليوم الذى دخلت فيه بوخارست ، اى يوم ٦ يوليو ١٨٥٣ ،وصل الى بطرسبرج الكونت جيولاى Gyulay وزير الحرب النمساوى السابق ، مبعوثا من قبل امبراطور النمسا ، فرانسيس جوزيف Francis Joseph • لكى يحث القيصر الروسى ووزراءه ، على انهاء احتلال القوات الروسية لولايتى الدانوب ، ولازالة ما ترتب على ذلك من آثار تضر بتجارة النمسا • واستاء قيصر روسيا من مسلك النمسا في تلك الظروف الدقيقة ، ولكن وزير خارجيته نيسلرود ، أقنع القيصر نقولا ، بضرورة مواصلة الاعتماد على النمساء لتحقيق مطالب روسيا في العاصمة التركية • (١)

محاولات الوساطة

حاولت النمسا القيام بوساطة لانهاء المشكلة ، فعقد بول وزير خارجيتها اجتماعا في فيينا ، حضره سفراء بريطانيا ، وفرنسا ،وبروسيا ، واعدوا «مذكرة فيينا » التى تضمنت حلا وسطا للمشكلة ، يقضى بان يعد السلطان العثمانى بمراعاة ماجاء في اتفاقيتى ١٧٧٤ ، ١٨٢٩ ، خاصا بحقوق الكنيسة الارثوذكسية نصا وروحا ، وان يعطى الارثوذكس نفس الامتيازات الممنوحة للطوائف المسيحية الاخرى ، والا يحدث اى تغيير في الاوضاع الحالية لرعاياه من المسيحيين ، بدون موافقة حكومة روسيا ، وحكومة فرنسا • وسلمت « مذكرة فيينا » يوم اول أغسطس ١٨٥٣ الى بطرسبرج ، وردت الحكومة الروسية بالموافقة بعد اربعة أيام •

ولكن حكومة تركيا رفضت الموافقة على مذكرة لم يؤخذ رأيها فيها ، بل سلمت لروسيا ، دون ان تسلم لها ، فضلا عن انها تعطى لروسيا وفرنسا ، اكثر مما يستطيع السلطان ان يعد به ، لانه يعد تدخلا في شئون الدولة العثمانية وشجع السلطان عبد المجيد على اعلان رفضه لمذكرة فيينا ، ان روسيا لم تقبل اجراء اى تعديل بها ، وان سعيد باشا والى مصر ارسل اسطوله لمعاونة السلطان ضد روسيا ، ووصل بالفعل الى القسطنطينية يوم ١٣ أغسطس ١٨٥٣ • (٢)

---

١ - C. E. Vulliamy, Crimea, the Campaign of 1854-1856, with an Outline of Politics and a Study of the Royal Quartet. London 1939, p. 55 ff.

٢ - راجع : أ•ج• جرانت وهارولد تمبرلى - المرجع السابق الجزء الاول - ص ٤٢٦ - ٤٢٧ •

وعلى اثر فشل تلك الوساطـــة ، التى قامت بها النمسا ، سارت الاحداث سريعـة الى وضعها المتوقع • فقـد انبعثت الـروح العسكرية القديمـة في استامبـــول وعمت المظاهـــرات العاصمة ، يـــومى ١١ و ١٢ سبتمبر ١٨٥٣ ، مطالبة بالحرب ضد روسيا وابحر اسطول بريطانى وآخـر فـرنسى الى بحر مرمرة عبر الدردنيل ، واستقبل الاتراك الاسطولين استقبالا حماسيا ، كحلفاء ضــد عدوان روسيا على أملاك الدولة العثمانية في ولايتى الدانوب • وفي غمرة ذلك الحماس ، أعلنت تركيا الحرب عـــلى روسيا يـوم ٤ أكتوبر ١٨٥٣ ، ورغم ذلك ظل هناك بقيـة مـن أمـــل في احتمال ايجاد حـــل سلمى للمشكلة • (١)

قبل ان تعلن تركيا الحرب، وصل القيصر نقولا الى أولميتز Ulmuetz في بوهيميا يـــوم ٢٤ سبتمبـــر ١٨٥٣ ، ليبحث مـع القيصر النمساوى فـــرنسيس جـوزيف جوانب الموقف ، وليحاول ابعاد النمسا ، عن أى تحالف مع انجلترا أو مع فرنسا ضـد روسيا • وتم الاتفاق بين تيسلرود ، وزير خارجية روسيا وبين بول ، وزير خارجيـة النمسا ، على التقدم بمذكرة فيينا مرة أخرى للسلطان العثمانى ، على ان ترفـق في هــذه المرة ، بمذكرة من روسيا ، تنكـــر فيها ان لديها اية نوايا للتدخل في الشئون الداخلية للدولة العثمانية • ولكن الموقف لـــم يكن يسمح بقبول مثل ذلك الحل ، فقـد فقـدت تركيا والدول الكبرى وخاصة انجلترا الثقة في نوايا قيصر روسيا • وما عادت تقبـــل بمثل ذلك الحل •

رفضت بريطانيا الحل المقترح ، وأجبـر رفضها الامبراطور الفرنسى نابليون الثالث هو الآخر على الرفض ، رغم عدم رغبته فـي خوض غمار حرب ضد روسيا ، وهو الـذى رفع شعار السلام • وحتى في حالة قبـــول انجلترا وفرنسا للمقتــرحات الـــروسية النمساوية ، التي عرفت باسم « مشروع بول» فان تركيا ما كانت لتستطيع قبـــول تلك المقترحات • وتقدم السلطان العثمانى يـوم ١٠ اكتوبر ١٨٥٣ بمذكرة على شكل انذار ، تسلمه الامير جورشاكوف Prince Gorchakov ، قائد القوات الروسية المحتلـة ولايتى الدانوب ، يطلب اليه فيه السلطان الجـلاء عن الولايتين فورا ، وان الجلاء عن الولايتين اذا لم يتم في خلال أسبوعين فان الحـــرب ستبدأ فورا •

وكان ستراتفورد سفـير بـــريطانيا في استامبول وصاحب النفوذ السياسى الكبير في العاصمة التركية ، لا يـزال يأمـل في أن تركيا قد تقبل مذكرة فيينا ، بعد اجـــراء التعديلات المطلوبـة عليها ، على ان يصحبها اعلان من الدول العظمى ، يضمن ان روسيا لن تطالب بمطالب جديـدة مـن السلطان ، وان السلطان العثمانى سينفذ كل ما وافق على تنفيذه بمقتضى تلك المذكـرة • ولهـذا السبب أخر ستراتفورد استدعاء الاسطـول البريطانى الى القسطنطينية نفسها ، وتركـه راسيا عند خليج بزيكا ، في بحر مـرمـرة • لقد تركه حتى يوم ٢١ اكتوبر ١٨٥٣ ، رغم ان الحكومة البريطانية أمرته بادخالـه الى

---

١ - J. Barckhausen, op. cit., p. 82.

شاطئ استامبول ، يوم ٤ اكتوبر ١٨٥٣ . ولعل ذلك الحادث يبين ان استراتفورد ، لم يكن متهافتا على بدء الحرب مع روسيا . كما تذكر بعض الاتهامات التي وجهت له انه كان يحض تركيا سرا ويحرضها على محاربة روسيا (١) .

بداية حرب القرم

تطورت الاحداث بصورة جعلت الحرب بين تركيا وروسيا امرا واقعا ، ففي ٢٣ اكتوبر ١٨٥٣ ، اطلقت المدفعية التركية نيرانها على بعض السفن الروسية في نهر الدانوب ، وفي يوم ٢٧ اكتوبر ١٨٥٣ ، عبر عمر باشا نهر الدانوب بجنوده وبدأ القتال ايضا على جبهة القوقاز ، وبعد بعض المتاعب بسبب الرياح، وصل الاسطول الفرنسي البريطاني المشترك الى البوسفور ، يوم ١٥ نوفمبر ١٨٥٣ ، كتدعيم لموقف تركيا .

ثارت ثائرة الرأى العام في بريطانيا ضد روسيا ، لان الاساطيل الروسية في البحر الاسود ، هاجمت في وحشية اسطول تركيا صغيرا في ميناء سينوب Sinope على الساحل الشمالى لشبه جزيرة آسيا الصغرى ، يوم ٣٠ نوفمبر ١٨٥٣ ، رغم ان قيصر روسيا ، كان قد اعلن منذ شهر فقط ، أن روسيا في حربها مع تركيا لن تتعدى اتخاذ موقف دفاعى . وترتب على ذلك أن دخلت الاساطيل البريطانية الفرنسية المشتركة الى البحر الاسود نفسه، يوم ٤ يناير ١٨٥٤ ، وأصبح واضحا ان فرنسا وبريطانيا على وشك دخول الحرب ، الى جانب تركيا ضد روسيا ، وهذا هو ما حدث بالفعل في مارس ١٨٥٤ ، وبدأت حرب القرم .

بذلك انجلترا وفرنسا جهودا دبلوماسية لعقد اتفاق بين بريطانيا وفرنسا والنمسا ، وبروسيا ، لمطالبة روسيا بالجلاء عن ولايتي الدانوب . وفشلت تلك المحاولات لان ملك بروسيا فريدريك وليم الرابع ، آثر التمسك بتقاليد أسرته الموالية دائما لروسيا ، والصديقة التقليدية لها ، على ان ذلك لم يمنعه من ان يعقد مع النمسا اتفاقية يوم ٢٠ ابريل ١٨٥٤ ، تقضى بان تساعد احداهما الاخرى اذا ما هوجمت ، كما نصت على اتفاقهما على ضرورة الضغط على روسيا للجلاء عن ولايتى الدانوب . لقد آثرت النمسا وهى المضارة من احتلال روسيا لولايتى الدانوب ، ان تعمل لحسابها بعيدا عن انجلترا وفرنسا ، حتى لا تضطر الى دخول حرب ضد روسيا جارتها التى تخشاها دائما وتخشى توسيع نفوذها (٢)

تدخل النمسا

في يوم ٣ يونيو ١٨٥٤ أرسلت النمسا انذارا الى بطرسبرج ، تطلب من روسيا عدم

---

١ - H. Maxwell, Life of Lord Clarendon, vol. ii, Chapter 8.

٢ - B. Kingsley Martin, The Triumph of Lord Palmerstone, A study of Public Opinion in England before the Crimean War, London, 1924, p. 15 - 226.

مد الحرب الى البلقان ، وضرورة تحديدموعد تجلو فيه القوات الروسية عن ولايتى الدانوب • واعتمدت النمسا في طلبها هذا على ان روسيا لم تكن في ذلك الحين تستطيع أن ترفض مطالب النمسا المعقولة ، حتى لاتضيف الى اعدائها عدوا آخر • وبدأت النمسا تكى تجبر روسيا على القبول بمطالبها المفاوضات مع انجلترا وفرنسا للحصول على معونتهما اذا لزم الامر • وفي يوم ٨ أغسطس ١٨٥٤ ، تم الاتفاق بين بريطانيا ، وفرنسا ، والنمسا ، على النقاط الاربع التالية التى عرفت باسم « نقاط فيينا الاربع » • :

١ ـ الغاء حماية روسيا على الصرب ، وولايتى الدانوب •

٢ ـ حرية الملاحة في الدانوب •

٣ ـ تعديل معاهدة ١٨٤١ ، بشأن المضايق ، لتحقيق التوازن الاوروبى •

٤ ـ رفض مطالب روسيا ، بان تقوم منفردة بحماية المسيحيين في كل انحاء الدولة العثمانية ، وضمان حقوق المسيحيين ، دون المساس بحقوق الدولة العثمانية • (١)

اضطرت روسيا الى الاستجابة لمطالب النمسا ، التى كانت قد تفاهمت مع تركيا على احتلالها ولايتى الدانوب ، بعد جلاء الروس عنها ، ولحين انتهاء الحرب كوضع مؤقت • وانسحبت القوات الروسية من الولايتين ، وحلت محلها القوات النمساوية يوم ٣٢ أغسطس ١٨٥٤ ، ريثما يتم الصلح ، فتسلم النمسا الولايتين ثانية الى تركيا وكانت الخطوة التالية للنمسا ، هى محاولة الحصول على موافقة روسيا على النقاط الاربع ، لكى تصبح اساسا للوصول الى مؤتمر للسلام • ورفضت روسيا في بادىء الامر الموافقة على النقاط الاربع ، كأساس للتفاهم ، ولكن النمسا ، اجبرتها على قبولها حين اعلنت تعبئة قواتها العسكرية ، يوم ٢٢ اكتوبر ١٨٥٤ ، وتبعت النمسا تلك الخطوة بخطوة أخرى اكثر فاعلية ، للضغط على روسيا ، فعقدت يوم ٢ ديسمبر ١٨٥٤ ، اتفاقية مع انجلترا وفرنسا ، هدفها الضغط على روسيا لكى تقبل حلا سليما للمشكلة مع تركيا • وقد نصت تلك الاتفاقية ، على ان الدول الثلاث الموقعة عليها تطلب من روسيا قبول السلام على اساس نقاط فيينا الاربع ، وانه في حالة رفض روسيا لذلك فان الدول الثلاث ستتشاور فيما بينها للوصول الى احسن وسيلة لتحقيق الهدف من تحالف انجلترا ، وفرنسا ، والنمسا ، وهو اقرار السلام •

وكان قبول روسيا للنقاط الاربع ، يمثل كسبا كبيرا بالنسبة لانجلترا والنمسا لانه سيضعف نفوذ روسيا في البلقان • ويحرم عليها ابقاء سفن حربية في البحر الاسود وكان يمثل كسبا خاصا للنمسا ، لان مقاطعتى الدانوب ستحرران من قضبة روسيا مما ييسر على النمسا وسائل النقل النهرى في الدانوب وكل تلك النتائج كانت

---

١ ـ J. A. Mariott, op. cit., p. 260

سترضى الحليفة فرنسا ، رغم انها لم تكن ستجنى الا فوائد قليلة القيمة، اذا ما قورنت بالفوائد التى ستعود على كل من انجلترا والنمسا . (١)

مباحثات فيينا

بدأت مباحثات السلام في فيينا ، يوم ١٥ مارس ١٨٥٥ ، وزاد الامل في احتمال الوصول الى اتفاق مع القيصر الروسى الجديد اسكندر الثانى ، الذى تولى العرش في روسيا على اثر وفاة القيصر نقولا يوم ٢ مارس وبدأ الروس في التنازل عن بعض مطامعهم في البلقان ، فتنازلوا عن المطالبة بحقوق خاصة لهم في ولايتى الدانوب ، ووافقوا على ان تتولى لجنة اوروبية مشتركة تنظيم الملاحة في الدانوب . ولكن روسيا لم تكن لترضى بقبول تفسير بريطانيا للنقاط الاربع ، على ان ذلك يعنى حرمان روسيا من بقاء سفنها الحربية في البحر الاسود . واصرت روسيا على عدم قبول ذلك الطلب ، لان عدم وجود اسطول حربى لها في البحر الاسود ، سيحرمها من الوصول الى القسطنطينية ، قبل غيرها من الدول ، اذا دعت الحاجة للتدخل مستقبلا ، وتركيا في رأى روسيا ستحتاج اسطول روسيا لمعاونتها ان عاجلا أو آجلا . وفشلت المفاوضات لهذا السبب وكان على الحرب التى بدأت بسبب احتلال روسيا لولايتى الدانوب ، ان تستمر الان ، من أجل منع روسيا من السيطرة على البحر الاسود . (٢) وقد حذر اللورد كلارندون Clarendon وزير الخارجية البريطانى ، من تلك السيطرة الروسية وخطورة جعل روسيا في موقع تستطيع منه السيطرة والتحكم في الدولة العثمانية ، بل انه توقع ان جعل البحر الاسود بحيرة روسية ، سيجعل الروس يتحكمون في مصير فارس ، وجورجيا ، وآسيا الصغرى ، وسيجعلهم يسيطرون بنفوذهم على بلاد اليونان ، وتساليا ، والبانيا وولايتى الدانوب اى ان تصبح اوروبا تحت رحمة روسيا تفرض عليها كلمتها . (٣)

سباستبول

كانت الحرب ضد روسيا اثناء تلك المحادثات قد اتخذت اتجاها آخر الهدف منه القضاء على قوة روسيا البحرية ، لتحطيم مقاومتها واجبارها على طلب السلام . نقل

---

١ - أ.ج. جرانت وهارولد تمبرلى - المرجع السابق - الجزء الاول - ص ٤٢٠ - ٤٢٣

٢ - William Miller, op. cit., p. 209.

٣ - — Puryear, England, Russia and the Straits Question, p. 448.
— H. Duberly, Journal of the Russian War, 1856.
— E. F. Malcolm — Smith, Stratford Canning, 1933.
— N. Steevens, The Crimean Campaign, 1878.
— Sir Evelyn Wood, The Crimea, 1895.

الحلفاء أعمالهم ضد روسيا ، بعد جلائها عن ولايتى الدانوب ، الى شبه جزيرة القرم، تجاه ميناء سباستبول Sebastopol حشدت انجلترا ، وفرنسا ، وتركيا ، ما يقرب من ستين ألف مقاتل في استامبول ،وابحرت تلك القوات قبل منتصف سبتمبر ١٨٥٤ ، من الميناء البلغارى وارنا Varna ووصلت اساطيل الحلفاء يوم ١٤ سبتمبر ١٨٥٤ ، الى خليج اوباتوريا Eupatoria شمال ميناء سباستبول ٠

بدأ المرشال سان اورنو Saint Arnaud واللورد راجلان Lord Raglan زحفهما صوب مدينة سباستبول نفسها ٠وفي ٢٠ سبتمبر ١٨٥٤ ، التقيا بقوة روسية تحت قيادة الجنرال منشيكوف ، كانت ترابط على الضفة الشمالية لنهر الما Alma وبعد قتال عنيف استبسل فيه الطرفان تم النصر للحلفاء ، واصبح الطريق مفتوحا الى سباستبول ٠ وكان على الحلفاء ان يتقدموا لاحتلال سباستبول ، وقد اشار بذلك الرأى اللورد رجلان القائد العام لجيش انجلترا في الحملة المشتركة ، ولكن الحلفاء أثروا سحب الجند ، والابحار بهم نحو الجنوب ، حيث اماكن النزول الى سباستبول اكثر ملاءمة لبداية الهجوم الكبير على المدينة ٠ واتخذت قيادة الحلفاء قرارا بهذا ونفذته مما ترتب عليه اعطاء المدافعين داخل المدينة فرصة ذهبية لتقوية حصون المدينة بصورة فعالة والاستعداد لمواجهة المهاجمين مما ترتب عليه استمرار حصار المدينة لمدة عام كامل ٠ (١)

لقد تمكن المهندس الروسى الشهير تودليبن Todleben من اعلاق الميناء في وجه المهاجمين ، حين اغرق بعض السفن الروسية في مدخل الميناء ، مع ابقاء السفن الروسية الحربية داخل الميناء للدفاع عنه وتميز حصار سباستبول بان خطة اللقاء لم تكن تقضى بالاستيلاء على المدينة عن طريق محاصرتها حصارا كاملا ، يمنع عنها المؤن والمدد ، ويجبرها تحت ضغط الجوع الى الاستسلام ، انما كان الحصار يرمى الى قصفها بالقنابل ، ثم شن الهجوم المباشر عليها ولهذا لم يبذل الحلفاء اى جهد ، لقطع اتصالات المدينة ببقية المناطق الروسية المجاورة بل ان الامير منشيكوف ترك ليرابط على رأس جيش كبير في المنطقة الجبلية الواقعة شرق المدينة ، وتوالت هجماته على جيوش الحلفاء المحاصرة للمدينة فاصبح جند الحلفاء وكأنهم هم المحاصرون ، بين قوات منشيكوف وبين القوات داخل المدينة التى لم ينقطع وصول المدد والمؤن ، والاسلحة والذخائر اليها ٠

لاقى الحلفاء في حصارهم للمدينة مصاعب شتى ، فالحصار الذى استمر عاما ، لم يظهر فيه في صفوف الحلفاء قائد عظيم ولم يبرز من بين القواد الا اسم المهندس الروسى الشاب الكولونيل تودليبن ، الذى تسبب باغراقه للسفن الروسية في مدخل الميناء في منع تقدم الاساطيل المعادية ، فاصبحت في وضع لا يسمح لها بمهاجمة المدينة بمدفعيتها

---

١ - C. E. Vulliamy, op. cit., p. 311 ff.

ا ج٠ جرانت وهارولد تمبرلى ، المرجع السابق ، الجزء الاول ص ٤٢٦

لان المدينة كانت بعيدة عن مرمى مدفعيتها • ولهذا عمد الحلفاء الى دك استحكامات المدينة بمدفعيتهم من الجنوب ، ولكنها لـم تكن مؤثرة بدرجة كبيرة • ولـو ان اساطيل الحلفاء كانت قد تمكنت من دخـول الميناء قبل سده لكانت المدينة كلها قد اصبحت في مرمى مدفعيتها • (١)

كان اللوردراجلان يقود القوات البريطانية حتى وفاته في يونيو ١٨٥٥ وكان قد حارب نابليون في واترلو ، وله تاريخ حافل • ولكن اشتراكه في حرب القرم جاء في غير موضعه ، لانه كان قد بلغ سنا لا تسمح له بمواجهة ظروف الحرب الجديدة في جو شديد البرودة لم تستعد القوات البريطانيـة لمواجهتـه • لقد تقدم الجيش البريطاني للحرب دون ان تكون له معدات وافية للنقل ، وتتوافر لديه وسائل العناية بالمـرضى ، وكان الجنـود يرتدون ملابس لا تصلح الا للاستعراضات العسكرية • (٢)

وبعد وفاة راجلان خلفه الجنرال سمبسون Sampson الذى لم يكن يحظى بسمعة سلفه • اما الفرنسيون فكان يقودهـم فـي البداية سان ارنو ، ولما توفى عـلى اثـر اصابته بالكولـيرا ، خلفـه كانروبـير Canrobert اولا ، ثم بليسيه Pelissier ولم يبرز من بين كل هؤلاء القـواد احـد • وقد ظهرت الكوليرا بـين جنـد الحلفاء في مراحل الحـرب الاولى وهاجمت معسكـرات الحلفاء بضراوة بالغة ، فنقص عدد القوات المهاجمة بصورة واضحة وضعفت الـروح المعنوية للجنود • لقد هبط عدد الانجليـز القادرين عـلى القتال في بعض الاوقات ، الى أحد عشر ألف مقاتل ، وكانـوا قد بدأوا القتال وعددهم حـوالى ستة وعشريـن ألف رجل • (٣)

ورغم تلك المصاعب والاهوال ، فقد تمكن الحلفاء من صد منشيكوف وقواتـه في ٢٢ اكتوبر ١٨٥٤ ، حين حاول قطـع اتصال الحلفاء بقاعدتهـم البحـريـة بلاكلافا Balaklava ولما شن هجوما على الحلفاء في ٥ نوفمبر ١٨٥٤ ، تمكنوا من صـده في انكـرمان Inkerman • ووصـل الى الحلفاء خمسة عشر ألف مقاتل من مملكـة سردينيا ، التى عقدت مع فرنسا وانجلترا معاهدة تحالف في ٢٦ يناير ١٨٥٥ ، لقـد كان كافور رئيس وزراء مملكـة سردينيا ، يأمل في كسب ود انجلترا وفرنسا ، لتأييد بلاده مستقبلا في صراعها ضد النمسا • التى كانت تحتل البنـدقية ولمبارديا ، وتمنـع باحتلالها لهما قيام الوحدة الايطالية ، تحت زعامـة ملـك سردينيا • وآثـر كافـور ان يشترك في حرب القـرم الى جـوار فرنسا وانجلترا وهما في اشد الحاجة الى اى عـون عسكرى ، لكى يحظى مستقبلا بعطفهما عـلى حركة توحيد ايطاليا • (٤)

---

١ - C. E. Vulliamy, op. cit., p. 176 ff.

٢ - هـ٠ا٠ل٠ فيشر - المرجع السابق - ص ٢٢٤

٣ - راجع ا٠ج٠ جرانت وهارولد تمرلى - المرجـع السابق - الجزء الاول - ص ٤٢٦ وما بعدها •

٤ - See : Balton King, History of Italian Unity.

مع نهاية فصل الشتاء بدأ الحلفاء هجوما متواليا على قلاع المدينة وقد تحققت مكاسب قليلة الاهمية • أما الهجوم المشترك الـذى بدأه الحلفاء يوم ١٨ يونيو ١٨٥٥ فقد كلف الحلفاء خسائر باهظـة في الارواح • وكان الحلفاء قد اختاروا لذلك الهجوم يوم ذكرى معركة واترلو ، التى اندحرت فيها قـوات نابليون امام هجمات الحلفاء منـذ اربعين عاما • وكان على الحلفاء ان يؤجلوا مـوعـد هجومهم المرة بعد الاخـرى الى ان بـدأوا هجومهم النهائى على المدينة يوم ٥ سبتمبـر ١٨٥٥ ، بقصف عنيف للمدفعية ، استمـر ثلاثة أيام • ونجـح الفـرنسيون يوم ٨ سبتمبر ١٨٥٥ ، في الاستيلاء عـلى حصن ملاكوف Malakov ، ولم يستطـع الروس طردهم من ذلك الموقع الذى يسيطر على المدينـة • واضطـرت سباستبول الى الاستسلام في اليوم التالى وخـرج الجيش الروسى منها لينضم الى جيش منشيكوف • ودخل الحلفاء المدينة بعـد حصار دام ٣٤٩ يوما استبسل فيها الروس في الدفاع ولاقوا من أهوال الحرب مثلما لاقـى مهاجموهـم تماما • (١)

نهايـة الحـرب

استمرت الحرب فترة وجيزة بعد سقوط سباستبول ، فقد رجحت كفة الروس فـي القوقاز ، وتمكنوا يوم ٢٨ نوفمبر ١٨٥٥ ، من الاستيلاء على قرص وهى قلعـة حصينـة طال حصارها ، ودافع عنها جنـدها مـن الاتراك دفاعا باسلا • وسقوط سباستبول لم يكن ليرضى بالمرستون ، الذى عاد رئيسا لوزراء بريطانيا ، وتحمس لفكرة شن حرب لا هوادة فيها ضد روسيا • وبعث بالمرستون بثلاثين ألف جندى آخرين للقتال ضد روسيا وتبعه في ذلك بقيـة الحلفاء ليصبـح جيش الحلفاء مكونا من ٢٥٦ ألف مقاتل ، تدعمت بحريتهم بعدد كبير من السفن الحـربيـة وحاول بالمرستون ان يحرز نصرا جـديـدا لبريطانيا يرد به على ما تردد ، من ان سقوط سباستبول قد تم بفضل استيلاء الفرنسيين على حصن ملاكوف وان البريطانيين في نفس هذا الوقت كانوا قد فشلوا في الاستيلاء على حصن ريدان Redan .

اما في فرنسا فقد كانت المشاعر مختلفة تماما فالشعب الفرنسي والامبراطور نابليون الثالث ، كانوا يشعرون بأن الحرب قـد حققت اغراضها ، فأخرجت الروس من ولايتى الدانوب ، وحققت مجـدا ونصرا لفـرنسا وجيـوشها ، وانهت التقارب بـين روسيا والنمسا وبروسيا • لقد شعر ومعه الشعب الفرنسي بأن استمرار الحرب لن يعود على فرنسا بأية فائدة انه خير للجيش الفرنسي ان يحارب على ضفاف نهر الراين لتحقيـق المصالح الفـرنسية ، أو أن يحارب لنصرة تحرير بولندة ، أو لتحقيق الوحدة الايطالية وكـل ذلك يتمشى مـع مصالـح فـرنسا الخاصة ، على عكس استمرار الحرب ضـد روسيا الـذى لا يخـدم سوى المصالـح البريطانية • (٢)

---

١ - C. E. Vulliamy, op. cit., 330 ff. William Miller, op. cit., p. 229 - 233.

٢ - J. A. R. Marriott, op. cit., p. 271.

وكانت النمسا هى الاخرى ترغب في انهاء تلك الحـرب التى رفضت الدخـول فيها الى جانب الحلفاء ، رغم محاولاتهـم المتكـررة لكسبها في صفهم • لقـد آثـرت النمسا التوسط دوما لانهاء هذه الحـرب ، التى لا مصلحة لها في استمـرارها • وانضمت النمسا الى فرنسا في محاولة للوصول مـع روسيا الى اتفاق ينهى الـحرب ويمنـع استمـرارها ، وبدأ الـدبلوماسيـون النمساويون ، بالتعاون مع الدبلوماسيـين الفرنسيين ، في اعداد مشروع للصلـح عـلى أساس النقاط الاربع السابق عرضها عـلى روسيا • وبعد مداولات طويلة تـم الاتفاق بين النمسا ، وفرنسا ، وانجلترا على شروط للصلـح قـدمتها النمسـا الى روسيا ، يوم ٢٨ ديسمبر ١٨٥٥ ، على شكل انذار وهددت النمسا في انـذارها بالانضمام الى الحلفاء في حربهم ضد روسيا اذا لم تقبـل روسيا عقد الصلح ، على أساس نقاط فيينا الاربع ، مضافا اليها تعديلان اولهما موافقة روسيا على حياد البحر الاسـود ، بمعنى ألا تكون به سفينة حربية روسية ، وثانيهمـا موافقة روسيا عـلى التنازل عن جـزء مـن بساربيا •

ورأت روسيا أنها تواجه بمفردها انجلترا وفرنسا وتركيا ومملكـة سردينيا وانها لن تستطيع أن تواجه النمسا ايضا ، خاصة وان السويد هى الاخرى بدأت تظهر ميلا للانضمام للحلفاء وان فريدريك وليم الـرابـع ملك بروسيا ، أكد للقيصر اسكنـدر الثانى ان النمسا جادة في تهديـدها وانها ستنضـم بالفعل للحلفاء ضد روسيا وحـدث ما كان لابد ان يحدث في تلك الظروف ، فـوافقت روسيا على قبول الشروط التى عـرضتها النمسا وانعقد مؤتمر الصلح في باريس فـي يوم ٢٥ فبراير ١٨٥٦ • (١)

مـؤتمـر الصلـح

انعقد مؤتمر الصلح في باريس ، للبت في مستقبل الدولة العثمانية وللحد من تقـدم روسيا ومطامعها في املاك تركيا • وحاول بالمرستون ووزير خارجيته كلارندون تضييق الخناق على روسيا • وحاول نابليون الثالث استغلال الفرصة ، لتعديل قرارات مؤتمـر فيينا عام ١٨١٥ ، وانهاء مشاكل تحريـر بولندة وتوحيد ايطاليا • وعارض بالمرستون تلك الفكرة ، وانضمت اليه النمسا مؤيـدة لبقاء الاوضاع • وحدث تقارب بين نابليون الثالث ، وقيصر روسيا ، كتب له ان يستمر بعد ذلك لبضع سنوات • واتهـم البعض الكونت والفسكي Count Walewski ، وزير خارجية فرنسا الذى لعب دوراهاما في مؤتمر الصلح ، بانه روسى اكثـر مـن الروس •

---

١ — Stanley Lane. Poole, Turkey, (assisted by E. J. Gibb and A Gilman, London 1888, p. 356.

— H. Temperely, The Treaty ofparis 1856 and its Execution, Journal of Modern History, IV., September, 1932, p. 401 - 402.

وتضمنت اتفاقية باريس التى وقعت في ٣٠ مارس ١٨٥٦ النقاط التالية :

١ ـ احترام املاك تركيا واستقلالها ٠

٢ ـ قبول مبدأ التحكيم في حالة وقــوع خلاف بين تركيا وغيرها من الدول ٠

٣ ـ تتعهد تركيا بتحسـين حال رعاياها المسيحيـين ، عـلى ألا تتـدخـل أيـة دولـة في شئونها الداخلية ٠

٤ ـ تغلق تركيا المضايـق في وجـه أيـة سفن حربية غير العثمانية ٠

٥ ـ اعلان حياد البحـر الاسود بحيث لا يسمح فيـه بظهـور سفن حـربيـة أو اقامة منشآت حربية ٠

٦ ـ حرية الملاحة في نهر الطونة ٠

٧ ـ ضمان امتيازات مولـدافيا وولاشيا والصرب تحت سيادة تركيا ٠

٨ ـ تعديل الحدود الروسية العثمانيـة ، فتعاد مصبات نهر الطـونة الى مولـدافيا أى الى السيادة التركية ٠

٩ ـ اعادة سباستبول الى روسيا والقـرم الى تركيا ٠ (١)

لقد انهت تلك الاتفاقية حرب القرم ولكن اغلب بنودها قد عدل في السنوات التاليـة مما جعل البعض يقول بأن حرب القرم لـم تأت بفائدة ، وان جهود الحلفاء وجنودهم قد ذهبت عبثا ٠ ولكن الحقيقة هى ان حـرب القرم لم تكن الا حلقة من حلقات الصراع في اوربا بين روسيا وغيرها من الدول الاوروبية ، وكلها تطمع بشكل او بآخـر في امـلاك الدولة العثمانية ، وتحرص قبل كل شيء على تحقيق مصالحها الخاصة ٠

خـط همايـون

وبينما كانت المفاوضات جارية من أجـل اقرار السلام وانهاء حرب القرم كان السلطان عبد المجيد يعد في سرية تامة وثيقة جديدة للاصلاح ٠ وقد عرف منشـور الاصـلاح الجديد باسم «خط همايون» وكان السلطان قد اختار ذلك الوقت لاصدار منشوره لكى تضمن الدول الغربية استمرار السلام فـي المستقبل ، ولكى تقطع على روسيا سبيـل التدخـل مرة أخـرى في شئون الدولـة العثمانية ٠ (٢)

واجتمع عدة آلاف من سكان القسطنطينية ظهر يوم ١٨ فبـرايـر ١٨٥٦ وتلى عليهـم

---

١ ـ Stanley Lane Poole, op. cit., p. 358. William Miller, op. cit., pp. 237 - 238.

٢ ـ Sir Harry Luke, The Old Turkey and the New, from Byzantium to Ankara, London, 1955, p. 48.

منشور الاصلاح . وقد أكد السلطان في منشوره هذا الحقوق التى منحت لرعايا الدولة بمقتضى منشور الاصلاح السابق والمعروف باسم « كلخانة » وقضى المنشور الجديد بالا تبقى المسائل المدنية الخاصة بالشعوب المسيحية في الدولة العثمانية من اختصاص رجال الدين المسيحى وحدهم ، مثلما كان عليه الحال من قبل ، بل ان تصبح تلك المسائل من اختصاص مجلس مختلط من الاهالى ومن رجال الدين المسيحى ، ينتخبه الشعب بنفسه . وفتحت ابواب معاهد التعليم الرسمية أمام أبناء المسيحيين، وبالتالى فتحت أمامهم وظائف الدولة المدنية وفرضت الخدمة العسكرية على المسيحيين ، وكانوا من قبل لا يقبلون بالجيش العثماني ولكنهم منحوا حق دفع البدل العسكرى للاعفاء من أدائها . ووعدوا بان يمثلوا تمثيلا أكثر فعالية من ذى قبل في مجالس الولايات والمجالس المحلية . وسمح للاجانب بامتلاك الاراضى وفقا لشروط معينة . ووعد السلطان ايضا في منشور بوضع نظام للضرائب يكون أقرب الى العدل وبوضع ميزانية سنوية ، والقضاء على الرشوة والفساد في مختلف صوره . (١)

فتنة ١٨٦٠ في لبنان وسوريا

وبعد أربع سنوات من صلح باريس ، وجدت الدول الاوروبية فرصة جديدة للتدخل في شئون الدولة العثمانية الداخلية . وكان التدخل في هذه المرة بسبب الخلافات والمذابح التى قامت في لبنان عام ١٨٥٩ ، بين الموارنة الكاثوليك تدعمهم فرنسا ، وبين الدروز تدعمهم بريطانيا . وقد اتهمت بريطانيا رجال الدين الكاثوليك باثارة الموارنة ضد الدروز ، واتهمت فرنسا بريطانيا ، بتأييدها للدروز ضد الموارنة ، وتطورت الاحداث الى اندلاع حرب أهلية في لبنان في مايو ١٨٦٠ ، وطغت على البلاد موجة من القتل والنهب دامت حتى شهر يوليو وقتل فيها ما يقرب من ٣٥٠٠ شخص من الموارنة وما يقرب من ١٥٠٠ من الدروز . (٢)

---

١ - دكتور محمد انيس - الدولة العثمانية والمشرق العربى - ص ٢١٩ .

راجع : مقال الدكتور احمد عزت عبد الكريم عن « التقسيم الادارى لسورية فى العهد العثمانى » حوليات كلية الاداب - جامعة عين شمس - المجلد الاول - مايو ١٩٥١ - ص ١٢٧ - ١٨٤ .

E. Pears, Forty years in Constantinople, New York, 1916, p. 58.

٢ - M. S. Anderson, op. cit., p. 157.

J. Nantet, Histoire du Liban, Paris, 1963, p. 189.

بروكلمان - المرجع السابق - ص ٥٧٣ .

محمد كرد على - المرجع السابق - ج ٣ ، ٤ - ص ٨٦

(الارقام المذكورة فى كثير من المراجع مبالغ فيها فقد ذكر بروكلمان ان عددهم زاد على ثلاثين ألف قتيل مسيحى وذكر نانتت ان عدد القتلى من المسيحيين كان ثمانية آلاف ، وذكر نفس الرقم اندرسون . ويذكر محمد كرد على فى كتابه خطط الشام ، ان عدد القتلى من النصارى حوالى ٣٥٠٠ . ويبالغ نورمان مبالغة شديدة فيقدر عددهم من النصارى بما يزيد على ٤٦ ألف شخص) .

وانتقلت عدوى تلك المذابـــح الى دمشق نفسها ، لولا ان قاومها الامـير عبـد القادر الجزائرى ، بطل حرب التحرير الجزائرية ، الذى كان منفيا مع أولاده وبعض أنصاره في دمشق ، وكان له بها مكانة عالية وكلمــة مسموعة •

مما لاشك فيه أن جزءا من مسئولية تلك الاحداث كان يقع على الادارة التركية ولكن مما لاشك فيه أيضا أن تدخل الدول الاجنبية ، كان عاملا هاما من عوامل اثارة الفتنـة • ويقول اللورد دوفرين Lord Dufferin في ذلك : « ولما ازداد تعجرف المسيحيـين وتعصبهم بقوة المساعدات الاجنبيـة التى فازوا بها ثقل عـلى الاتـراك احتمال وطأة استقلالهم ، فعقدوا العزم على اتخاذ الدروز آلة ليوقعوا بهم ، ويضربوهم ضربـة أشـد ايلاما مما تقدمها » •

ويضيف اللورد دوفرين مبينا تهـريب الدول الاجنبية للاسلحـة الى لبنان ، ودور المطران الكاثوليكى واعوانه في اثارة الفتنـة فيقول : « لما زرت هـذه الاصقاع (لبنان) قبل استيقاظ الفتنة ببضعة أشهر ، شاهدت أماراتها بادية في عواطف الفريقين ، فالدروز كانوا مستعدين للقتال ، والموارنـة كانـوا يعتقدون انه قد اذنت ساعة فوزهم • كمـا ان دخل الجمارك يثبت أن قد ادخل الى لبنان من كانون الثانى ١٨٥٧ الى ربيـع ١٨٦٠ ، أكثر من ١٢٠ ألف بنـدقيـة ، و ٢٠ ألف مسدس ، وكان من المشتهر انصراف المطران طوبيا وشركائه الى ايقاظ الفتنة • » (١)

ثم يستطرد اللورد دوفريـن واضعا مسئولية تلك الاحداث والفظائع على الجانبين وليس عـلى الـدروز فحسب ، كما كانـت فرنسا ومن ورائها بقية اوروبا الكاثوليكية تحاول ان تصور الاحداث ، فيقول دوفرين في وضـوح : « فمن العبث وصف النصارى بأنهم شهداء قديسون فهم يضاهون جيرانهم الدروز في حروبهم همجية وظمأ الى الدماء ، وكثيرا ماكانوا يقتتلون بعضهـم مـع بعض ولا يعفون عن النساء • يؤيد ذلك ارتكابهم الفظائع مع المشايخ الخازنيين منذ سنتين ، ومثل هذه المعايب كثيرة في تاريخهم بيد ان الدروز هم من هذا القبيل اكثر شفقة مـن غيرهم ، فلا يقتتلون بعضهـم مـع بعض ويحترمون النساء ، وعليه فمن الخطأ وصف القتال الذى جرى بين الـدروز والموارنـة بمثابة اعتداء وثنيين برابرة ، على اتباع دين المسيح الودعاء » •

والحقيقة ان يد فرنسا كانت وراء تلـك الاحداث في لبنان وان ازدياد عدد القتلى من المسيحيين ليس دليلا على ان الدروز هـم الذين أثاروا تلك الفتن ، ويقـول اللـورد دوفرين في ذلك : « انـزل الفائـزون في اعدائهم البلية التى كانـوا مهـددين بها فيما لو تغلب هؤلاء » فالدروز قد انـزلوا بالمسيحيين مثل ما كان يتوق هؤلاء الى انزاله بهم ان كانوا قد تغلبوا ، واللورد دوفرين كما رأينا يتهم مطران الكاثوليك قائـلا « مـن المشتهر انصراف المطران طـوبيا وشركائـه الى ايقاظ الفتنة » •

---

١ - محمد كرد علي - خطط الشام - الجـزء الثالث والرابع - (بيروت ط ١٩٧٠) صفحة ٨١ (كل اقوال اللورد دوفرين التالية ايضا) •

واقترحت فرنسا يوم ٦ يوليــو ١٨٦٠ ارسال لجنة دولية الى لبنان لدراسة الموقف هناك ولما وصلت أنباء المذابح التى حدثت في دمشق يوم ٩ يوليو ، قرر نابليون الثالث ، التدخل عسكريا في الازمة لحماية المارونيين الكاثوليك . وشجعه على ذلك وزير خارجيته توفنيــل Thouvenel وطلب نابليــون الثالث ووزير خارجيته من الدول الاوروبية ارسال قوات اوربية مشتركـة الى سوريا ، وان فرنسا على استعداد لتقديم اغلبية تلك القوات .

وادركت انجلترا ان فرنسا تحاول استغلال تلك الاحداث لكى تضع قـدمها في سوريا ، وان دخول جيش فرنسى الى سوريا قد يكون خطرا على سوريا ، وعلى الدولة العثمانية ، وعلى المصالح البريطانية في تلـك المنطقـــة الحيويـة . وحامت الشبهات حــول نيات فرنسا ، فهى تحاول بارسال قوات الى سوريا اجبار السلطان العثمانى على ايقاف معارضته لمشروع حفر قناة السويس الذى بدأ في عام ١٨٥٩ والذى زاد من نفوذ فـرنسا لــدى سعيــد باشا والى مصر ، وهـــو ما تخشاه بريطانيا وتعمل على تجنبــه . كما ان الانباء تواترت ، دون ما دليل مادى عن نية فرنسا بعد احتلال سوريا ، في عدم الانسحاب منها ثانية واقامة دولة مستقلة خاضعة للنفـوذ الفرنسى ترشح لحكمها المجاهـــد الشهـير عبد القادر الجزائرى ، الذى اصبحت تأمل في تعاونه معها ، بعد ما أثبت من حكمتــه ، في منع الكثير من المذابح بين الدروز والموارنة في دمشق . (١)

وعارضت بريطانيا كل ما من شأنـــه ان يزيد من نفوذ فـــرنسا في سوريا ، وزادت مخاوفها من سياسة نابليون الثالث ، بعـد حصوله عـلى نيس وسافـوى ، مـن مملكـة سردينيا ، في مارس ١٨٦٠ ، كثمن لمعاونته لمملكة سردينيا في سبيل تحقيق الوحـــدة الايطالية . ورأت في ازدياد مطامع نابليـون الثالث مع تقربه المستمر من روسيا ، خلال السنوات السابقة ، خطرا يهـــدد المصالح البريطانية ، خاصة وفرنسا قـد زادت مـن انتاجها للسفن الحربيـــة ، مما يشكك في نواياها بصفة عامة . (٢)

وحاولت روسيا زيادة الخـــلاف بـــين فرنسا وانجلترا ، فاقترحت في نهاية يوليو ١٨٦٠ ، على الدول العظمى في حالة موافقتها على التدخل في سـوريا ان تطلب ايضا مـن السلطان تحسين احوال الرعايا المسيحيـين في كل انحاء الدولة العثمانية وان على الدول العظمى ان تتصرف مستقبلا في حالة حدوث أى مشاكل للمسيحيين على نفس النمط الذى ستتدخل به في لبنان . وهكذا عادت روسيا لاستغلال الاحداث من أجل اثارة الخلافات بين الدول الاوروبية ، واستغلال ذلك مـن أجل تحقيق مطامعها ، بالتدخـل في شئون الدولة العثمانية الداخليـة وادركت انجلترا وتركيا المـرامى التى تـرمى اليها روسيا من اقتراحها هذا ، فقررتا رفضه بشدة . ولـم يستطع نابليون الثالث ان يفعل شيئا مـن أجل تدعيمه ، مما اضطر روسيا الى سحب اقتراحها .

---

١ - كارل بروكلمان - تاريخ الشعوب الاسلاميـة - نقله الى العربية نبيه أمين فارس ومنير بعلبكى ، بيروت ، الطبعة الخامسة ١٩٦٨ ص ٥٧٣

٢ - M. S. Anderson, op. cit., p. 137 ff.

لم يحدث اتفاق بين الدول العظمى بشأن التدخل في سوريا الا يوم ٣ أغسطس ١٨٦٠ فقد وقعت الدول العظمى اتفاقا في باريس يقضي بارسال حملة اوروبية مشتركة من ١٢ ألف مقاتل تقدم فرنسا نصفهم الى سوريا ، واشترطت الدول على تلك الحملة الا تبقى بسوريا اكثر من شهور ستة ، والا تحاول أى دولة تحقيق أى مكاسب من تلك الحملة ، وكان من الواضح أن المعنى من ذلك هو فرنسا • (١)

في تلك الاثناء كان السلطان عبد المجيد ، قد كلف وزير خارجيته فؤاد باشا بدخول سوريا ، مزودا بسلطات مطلقة للقضاء على تلك الاضطرابات • ووصلت القوات الفرنسية الى بيروت يوم ١٦ أغسطس ١٨٦٠ ، فوجدت ان فؤاد باشا قد اوقع بالمحرضين عقوبات قاسية فقتل وسجن ونفى كل من حامت حوله الشبهات ، وعوض المنكوبين من الاهالى من مال الدولة • وهكذا لم يجد الفرنسيون حين وصلوا ما يفعلونه وظلوا في سوريا تسعة اشهر ، يحاولون الضغط على السلطان ، الى ان تم الاتفاق بعد مباحثات طويلة في باريس ، بدأت بين ممثلى الدول العظمى وممثل السلطان العثمانى يوم ١٩ فبراير ١٨٦٠ ، وانتهت في آخر مايو ١٨٦٠ •

وتم الاتفاق على منح لبنان استقلالا اداريا ، وان يستمتع بنظام خاص ، فيختار له الباب العالى متصرفا مسيحيا ، بموافقة الدول الست العظمى ، واتفق على تكوين حرس لبنانى مستقل عن الادارة التركية ، وان يحكم المتصرف بمعاونة مجلس ، يضم ممثلين عن كل الطوائف الدينية الرئيسية بالتساوى • وهكذا انتهت مشكلة الخلافات بين الدروز والمارونيين في سوريا ، ولكن الدولة العثمانية شعرت بتآمر الدول الاوروبية على اراضيها ، وعدم التزامها بما وعدت به في صلح باريس عام ١٨٥٦ ، من عدم التدخل في شئون الدولة العثمانية الداخلية • على ان تلك الازمة في الواقع وغيرها من الازمات التى تلت حرب القرم ، لم تكن بالازمات الكبيرة الخطيرة ، ولم تهدد بقيام حرب كبرى ، ولم يترتب عليها تغيير جوهرى او ضياع جزء من املاك الدولة العثمانية • (٢)

سوء الاحوال المالية

وكما شهد عصر السلطان عبد العزيز ، منذ تولى الحكم في ٢٥ يونيو ١٨٦١ نمو حركة القوميات في ولايات البلقان ، فقد شهد تركيا نفسها ، وقد بدأت هى الاخرى حركة نهضة جديدة لا بأس بها • فحين افتتحت قناة السويس في عام ١٨٦٩ ، كانت السكك الحديدية قد بدأت في الانتشار في آسيا الصغرى وبلاد البلقان ، كما ان المدن الكبيرة كلها كانت تنتتح بها بنوك اجنبية للمال والتجارة • واستغلت الدول الاوروبية

---

١ - راجع دكتور حسين مؤنس - الشرق الاسلامى فى العصر الحديث - الطبعة الثانية - القاهرة ١٩٣٨ - ص ٢٨١ - ٢٨٢ •

٢ - محمد كرد على - المرجع السابق - الجزء الثالث والرابع - ص ٨٧ وما بعدها •

تلك الظروف ، واعطت الحكومة التركية ديونا ثقيلة ، جعلت الدولة العثمانية تخضع وبالتدريج للاشراف المالى للدول الاوروبية الغربية ، كما جاء استغلالها للموقف في شكل آخر خطير ٠٠ هو أن حملات التبشير المسيحية الاوروبية ، بدأت تتدفق على كل انحاء الدولة العثمانية وتنشىء المدارس التى تتخذها وسيلة لنشر أفكارها ، ومركزا لنشاطها التبشيرى المعادى للدولة الاسلامية ٠ (١)

وانشأ الاتراك لانفسهم في تلك السنوات عددا من الجامعات والمدارس العليا ، تشمل مدرسة الطب في عام ١٨٦٧ ، والليسيه العليا في عام ١٨٦٨ ، وجامعة استامبول في عام ١٨٦٩ ، ومدرسة الحقوق في عام ١٨٧٠ ،وكلها تأثرت بحركة انشاء الجامعات التى عمت أوروبا ٠ وتقدمت الصحافة في تلك السنوات أيضا تقدما ملموسا ، ففى عام ١٨٥٩ لم يكن هناك سوى جريدة واحدة رسمية وأخرى شبه رسمية، في الامبراطورية العثمانية ، وكانتا تصدران اسبوعيا ، أما في عام ١٨٧٢ فقد أصبح هناك ثلاث جرائد يومية ، وعدة جرائد أسبوعية ، وكان هناك فضلا عن ذلك ست جرائد يومية ، تصدر باللغة الفرنسية ، ويقرأها المتعلمون في المدن الكبيرة كاستامبول والاسكندرونة وبدأت مع انتشار الصحف حركة ازدهار أدبي وفكرى ٠ (٢)

على أن ذلك التقدم ما كان يمكن ان يستمر وينمو ، لان الدولة العثمانية كانت قد وقعت فريسة في أيدى البنوك والدول الاوروبية المستغلة ٠ فحين تولى السلطان عبد العزيز الحكم ، في يونيو ١٨٦١ ، كان أسلافه قد تركوا وراءهم دينا مقداره خمسة عشرة مليونا من الجنيهات الاسترلينية ،وكان العجز قد بلغ ١٠٣ مليون فرنك وفي السنة التالية وفق الباب العالى الى عقد قرض مع بريطانيا ، قيمته ستة ملايين جنيه استرلينى ، ولكنه اضطر مقابل ذلك الى ان يوافق على تعيين مفوض بريطانى ، يراقب وجوه انفاق هذا القرض ، وقبل السلطان تعيين ممثلين ماليين للدول العظمى ، وقد اقترح هؤلاء انشاء ديوان للمحاسبة ، وبنك للدولة في استامبول ولكن ذلك لم يؤد الى اصلاح المالية العثمانية ، بسبب سوء نوايا الاجانب نحو الدولة ٠ (٣)

لقد بدأ الاتراك ديونهم من الاجانب للانفاق على حرب القرم ، وبدأت البنوك الاجنبية في استغلال الدولة العثمانية ، وما وافى عام ١٨٧٥ حتى كانت الدولة مدينة باربعة عشر قرضا ، من مختلف الانواع ، تبلغ في مجموعها ٢٠٠ مليون جنيه استرلينى ، وهو

---

١ – راجع : دكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى – علاقات مصر بتركيا فى عهد الخديوى اسماعيل – ١٨٦٣–١٨٧٩ – دار المعارف بمصر – ١٩٦٧ – ص ٢٠٠ وما بعدها ٠

٢ – — Bernard Lewis, The Emergence of Modern Turkey, Oxford, 1961, p. 143.

— Olive Anderson, Great Britain and the Beginnings of the Ottoman Public Debt 1854-1855, Historical Journal, vii, 1964, p. 80 ff.

٣ – محمد جميل بيهم – فلسفة التاريخ العثمانى – بيروت ١٩٥٤ – صفحة ١٧٣ وما بعدها ٠

مبلغ في تلك الازمنة في غاية الضخامة • لقد كان على الحكومة التركية ان تدفع سنويا ١٢ مليون جنيه استرليني فوائد ونفقات سنوية لهذا المبلغ الضخم ، وكان ما تدفعه فوائد ونفقات للدين ، يزيد قليلا عن نصف دخل الامبراطورية العثمانية السنوى •

هكذا ساء الوضع الاقتصادى ، والمركز المالى للحكومة التركية ، وعانت الدولة الازمة تلو الازمة • ففى عام ١٨٧٣ - ١٨٧٤ ، عم القحط آسيا الصغرى ، ووقفت الحكومة التركية عاجزة عن اتخاذ أى اجراء للتخفيف عن الناس • وفي نفس تلك الفترة اصابت الازمة المالية استامبول فأضرت بالعديد من البنوك المالية •واضافت الثورة التى نشبت في البوسنة والهرسك في عام ١٨٧٥ ، للدولة أعباء مالية جديدة •

وما وافى شهر نوفمبر ١٨٧٥ ، حتى كانت الازمة المالية قد بلغت ذروتها فالجنود والبحارة والموظفون لم يكونوا قد تقاضوا مرتباتهم مدة ثمانية شهور• وحاول السلطان فرض ضرائب جديدة على الفلاحين في آسيا الصغرى ، ولكن ذلك كان مستحيلا لان الفلاحين كانوا مثقلين بالضرائب ، ويجأرون بالشكوى • وعبثا حاول الباب العالى ان يعقد قرضا جديدا في باريس ، وان يجعل من البنك العثمانى جابيا وخازنا في آن واحد في كل أنحاء الامبراطورية •

لم يكن أمام السلطان من حل ، بعد تأزم الموقف المالى ، الا أن يعلن افلاس الدولة ، وكان السفير الروسى قد اشار عليه بهذا الحل • وأعلن الصدر الاعظم في نوفمبر ١٨٧٥ ان العجز في ميزانية الدولة ، سيضطر الباب العالى خلال السنوات الخمس التالية ، الى أن يدفع نصف قيمة الفائدة على الديون نقدا ، والنصف الآخر سندات بفائدة ٥ في المائة واستثنى من ذلك قرضين كانت الدولة قد اقترضتهما بضمان انجلترا وفرنسا ، من أجل الانفاق على حرب القرم ، وكذلك السندات المالية التى كان السلطان يملكها ، والتى بلغت قيمتها حوالى ١٤٤ مليون فرنك وقدرت ديون تركيا عند اعلان الافلاس ، مضافا اليها الديون الجارية الناشئة عن شراء السفن الحربية ومدافع كروب Krupp وبنادق مارتن Martin ، بما يزيد على ستة ملايين وربع مليون فرنك • (١)

---

١ - كارل بروكلمان - المرجع السابق - ص ٥٨٢